الفصل الخامس

أسلحة المؤمن في حربه مع الشيطان

أسلحة المؤمن في حربه مع الشيطان

أولاً ـ الحذر والحيطة :

هذا العدو الخبيث الماكر حريص على ضلال بني آدم وقد علمنا أهدافه ووسائله في الاضلال ، فبمقدار علمك بهذا العدو : أهدافه ووسائله ، والسبل التي يضلنا بها تكون نجاتنا منه ، أما إذا كان الإنسان غافلاً عن هذه الأمور فإن عدوه يأسره ويوجهه الوجهة التي يريد . وقد صور ابن الجوزي هذا الصراع بين الإنسان والشيطان تصويراً بديعاً حيث يقول : « واعلم أن القلب كالحصن ، وعلى ذلك الحصن سور ، وللسور أبواب وفيه ثلم (الثلمة في السور الموضوع المتهدم منه) وساكنه العقل ، والملائكة تتردد على ذلك الحصن ، وإلى جانبه ربض « الربض المكان الذي يُؤوي إليه » فيه الهوى، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع ، والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض ، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم ، فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكل بحفظه وجميع الثلم ، ألا يفتر عن الحراسة لحظة ، فإن العدو لا يفتر . قال رجل للحسن البصري : أينام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة .

وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صور كل ما يمرُّ به ، فأول ما يفعل الشيطان في الربضين إكثار الدخان فتسودّ حيطان الحصن ، وتصدأ المرآة ، وكمال الفكر برد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرآة ، وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن ، فيكر عليه الحارس فيخرج ، وربما دخل فعاث وربما أقام لغفلة الحراس ، وربما

ركدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولا يدرى به ، وربما جرح الحارس لغفلته وأسر واستخدم وأقيم يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته ، وربما صار كالفقيه في الشر ، (تلبيس إبليس /٤٩) .

ثانياً ـ الالتزام بالكتاب والسنَّة :

أعظم سبيل للحماية من الشيطان هو الالتزام بالكتاب والسنة علماً وعملاً ، فالكتاب والسنة جاءا بالصراط المستقيم ، والشيطان يجاهد كي يخرجنا عن هذا الصراط قال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (سورة الأنعام / ١٥٣) وقد شرح الرسول ـ ﷺ ـ هذه الآية وبينها فقد « خط ـ ﷺ ـ خطاً بيده ، ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيماً » وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه والنسائي) .

فاتباع ما جاءنا من عند الله من عقائد وأعمال وأقوال وعبادات وتشريعات وترك كل ما نهى عنه يجعل العبد في حرز من الشيطان ، ولذلك قال سبحانه وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) (سورة البقرة / ٢٠٨) والسلم هو الإسلام وقيل طاعة الله وفسره مقاتل بأنه العمل بجميع الأعمال ووجوه البر ، وعلى ذلك فقد أمرهم بالعمل بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ما استطاعوا ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، فالذي يدخل في الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته ، والذي يترك شيئاً من الإسلام فقد اتبع بعض خطوات الشيطان ، ولذلك كان تحليل ما حرّم الله ، وتحريم ما أحل الله ، أو الأكل من المحرمات والخبائث

كل ذلك من اتباع خطوات الشيطان التي نهينا عنها (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) ، (سورة البقرة /١٦٨) .

إن الالتزام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً يطرد الشيطان ويغيظه أعظم اغاظة ، روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وابن ماجة في سننه عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إذا قرأ ابنُ آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنّة ، وأُمرت بالسجود فعصيت فلي النار » .

ثالثاً ـ الالتجاء إلى الله والاحتماء به :

خير سبيل للاحتماء من الشيطان وجنده هو الالتجاء إلى الله والاحتماء بجنابه والاستعاذة به من الشيطان ، فإنه عليه قادر ، فإذا أجار عبده فأنى يخلص الشيطان إليه ، قال تعالى : (خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين ، **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم**) (سورة الأعراف / ١٩٩ ـ ٢٠٠).

وقد أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين وحضورهم (وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون) (سورة المؤمنون/ ٩٧ ، ٩٨) . وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم فالله يأمرنا بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا احساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم .

يقول ابن كثير في تفسيره (١/٢٨): « والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شرّ كل ذي شرّ ... ، ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم ، لا يضرني في ديني ودنياي

أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه » .

وقد كان ـ ﷺ ـ يكثر من الاستعاذة بربه من الشيطان بصيغ مختلفة فكان يقول بعد دعاء الاستفتاح في الصلاة: « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » روى ذلك أصحاب السنن الأربعة ، وقد فسر همز الشيطان بالموتة وهي الخنق ، والنفخ بالكبر ، والنفث بالشعر .

الاستعاذة عند دخول الخلاء :

وكان إذا دخل الخلاء يستعيذ من الشياطين ذكورهم وإناثهم كما في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبي ـ ﷺ ـ إذا دخل الخلاء قال : « اللهمَّ إني أعوذ بك من الخبث والخبائث » .

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « إن هذه الحشوش محتضرة ، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخبائث » .

الاستعاذة عند الغضب :

واستب رجلان عند النبي ـ ﷺ ـ فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى يخيل إلى (إلى رواي الحديث) أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه ، فقال النبي ـ ﷺ ـ: « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب » فقالوا : ما هي يا رسول الله ؟ قال : يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم » رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد وهذا لفظ أحمد .

وقد علم الرسول ـ ﷺ ـ أحد أصحابه أن يقول : « اللهمّ فاطر السموات

والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت ، ربَّ كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شرِّ نفسي ، ومن شرِّ الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلم » رواه الترمذي بإسناد صحيح (صحيح الجامع ٥٦/٦) .

الاستعاذة عند الجماع :

وحثنا على الاستعاذة حين يأتي الرجل أهله بأن يقول : « بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه لو قضى بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبداً » متفق عليه . وإذا نزل المرء واديا أو منزلاً فعليه أن يستعيذ بالله لا كما كان يفعل أهل الجاهلية يستعيذون بالجن والشياطين ، فيقول قائلهم : أعوذ بزعيم هذا الوادي من سفهاء قومه ، فكانت العاقبة أن استكبرت الجن وآذتهم كما حكى الله عنهم ذلك في سورة الجن (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) (سورة الجن /٦) أي الجن زادت الإنس رهقاً ، أما المسلم فانظر إلام أرشده الرسول ـ ﷺ ـ حيث يقول : « لو أن أحدكم إذا نزل منزلاً قال : أعوذ بكلمات الله التامة من شرِّ ما خلق ، لم يضره في ذلك المنزل شيء ، حتى يرتحل منه » . رواه ابن ماجه باسناد صحيح .

التعوذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار :

يقول الرسول ـ ﷺ ـ : « إذا نهق الحمار فتعوَّذوا بالله من الشيطان الرجيم » رواه الطبراني في معجمه الكبير باسناد صحيح (راجع صحيح الجامع ٢٨٦/١) وقد سبق أن الحمار إذا نهق بالليل فيكون قد رأى شيطاناً .

التعوذ حين قراءة القرآن :

قال تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) (سورة النحل ٩٨-٩٩)

وقد بين ابن القيم الحكمة في الاستعاذة بالله من الشيطان حين قراءة القرآن ، (اغاثة اللهفان ١/١٠٩) فقال :

« ١ ـ إن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة ، فهو دواء لما أمره الشيطان فيها ، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الداء محلاً خالياً ، فيتمكن منه ، ويؤثر فيه ، كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجح فيه .

٢ ـ ومنها أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب ، كما أنَّ الماء مادة النبات ، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً ، فكلما أحسَّ بنبات الخير من القلب سعى في افساده واحراقه ، فأمر أن يستعيذ بالله ـ عز وجل ـ منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن . والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن ، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها .

٣ ـ ومنها أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن وتستمع لقراءته ، كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها المصابيح ، فقال عليه الصلاة والسلام : تلك الملائكة والشيطان ضد الملك وعدوه . فأمر القارىء أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته ، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين .

٤ ـ ومنها أن الشيطان يجلب على القارىء بخيله ورجله ، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن ، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلِّم به سبحانه ، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن ، فلا يكمل

انتفاع القارىء به ، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

٥ ـ ومنها أن القارىء يناجي الله تعالى بكلامه ، والله أشدُّ أذناً للقارىء الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته ، والشيطان إنَّما قراءته الشعر والغناء ، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته .

٦ ـ ومنها : أن الله سبحانه أخبر أنّه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، والسلف كلهم على أن المعنى : إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته ... فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام فكيف بغيرهم . ولهذا يغلِّط القارىء تارة ، ويخلط عليه القراءة ، ويشوشها عليه ، فيخبط عليه لسانه ، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه ، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا أو هذا ، وربَّما جمعها له .

٧ ـ ومنها أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه ، فهو يشتدُّ عليه حينئذ ليقطعه عنه » .

تعويذ الأبناء والأهل :

وقد كان الرسول ـ ﷺ ـ يعوذ الحسن والحسين فيقول : « اعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كلِّ عين لامة ، ثم يقول : هكذا كان أبي إبراهيم ـ ﷺ ـ يعوذ إسماعيل واسحق » (أخرجاه في الصحيحين) . قال أبو بكر بن الأنباري : « الهامة واحد الهوام ، ويقال هي كل نسمة تهم بسوء ، واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون أخف على اللسان » (تلبيس إبليس ٤٧) .

خير ما يتعوذ به المتعوذون :

وخير ما يتعوذ به المتعوذون سورتا الفلق والناس ، فعن عقبة بن عامر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : (قل أعوذ

برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) » رواه النسائي .

فقه عظيم :

حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : « ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال هذا يطول . أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع ، قال : أكابده جهدي وأرده . هذا أمر يطول ولكن استعن بصاحب الغنم يكفّه عنك » (تلبيس إبليس/ ٤٨) وهذا فقه عظيم من هذا العالم الجليل فإن الاحتماء بالله والالتجاء إليه هو السبيل القوي الذي يطرد الشيطان ويبعده ، وهذا ما فعلت أم مريم إذ قالت:(وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) (سورة آل عمران / ٣٦) .

شبهة :

يقول بعض الناس إننا نستعيذ بالله ومع ذلك فإننا نحس بالشيطان يوسوس لنا ويحرضنا على الشر ويشغلنا في صلاتنا .

والجواب أن الاستعاذة كالسيف في يد المقاتل ، فإن كانت يده قوية أصاب من عدوه مقتلاً ، وإلا فانه قد لا يؤثر فيه ، ولو كان السيف صقيلاً حديداً .

وكذلك الاستعاذة إذا كانت من تقي ورع كانت ناراً تحرق الشيطان وإذا كانت من مخلط ضعيف الإيمان فلا تؤثر في العدو تأثيراً قوياً . قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله : (واعلم أن مثل إبليس مع المتقي والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام ولحم فرَّ به كلب ، فقال له اخسأ ، فذهب . فرَّ بآخر بين يديه طعام ولحم فكلّما أخسأه (طرده) لم يبرح . فالأول مثل المتقي يمرُّ به الشيطان فيكفيه في طرده الذكر . والثاني مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه نعوذ بالله من الشيطان) . (تلبيس إبليس / ٤٨) .

فعلى المسلم الذي يريد النجاة من الشيطان وأحابيله أن يشتغل بتقوية إيمانه

والاحتماء بالله ربه والالتجاء إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

رابعاً ـ الاشتغال بذكر الله :

ذكر الله من أعظم ما ينجي العبد من الشيطان وسيأتي ذكر الحديث الذي يأمر فيه نبي الله يحيى بني اسرائيل بخمس خصال ، ومن هذه « وآمركم أن تذكروا الله تعالى ، فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدوّ في أثره سراعاً ، حتى إذا أتى إلى حصن حصين ، فاحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله » يقول ابن القيم في (الوابل الصيب ص ٦٠) : فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى ، وأن لا يزال لهجاً بذكره ، فإنَّه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة ، فهو يرصده ، فإذا غفل وثب عليه وافترسه ، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر ، وانقمع ، حتى يكون كالوصع (طائر أصغر من العصفور) وكالذباب ، ولهذا سمي (الوسواس الخناس) ، أي : يوسوس في الصدور ، فإذا ذكر الله خنس ، أي كف وانقبض . وقال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله تعالى خنس .

ويقول ابن القيم (ص ١٤٤) : « الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه ، فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً ، وأحاطوا به ، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشرِّ والأذى ، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عز وجل » .

ثم ساق رحمه الله حديث عبد الرحمن بن سمرة ، قال : خرج علينا رسولُ الله ﷺ يوماً ، وكُنَّا في صُفَّةٍ بالمدينة ، فقام علينا وقال : « إنِّي رأَيْتُ البارحَةَ عَجَباً : رأَيتُ رجلاً من أُمَّتي أَتاه مَلَك الموت ليَقْبِضَ رُوحَهُ ، فجاءه بِرُّه بوالِدَيْه ، فردَّ مَلَك الموت عنه ، ورأيت رجلاً قد بُسط عليه عذاب

القبر ، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيتُ رجُلاً من أُمَّتي قد احْتَوَشَتْه الشَّياطين ، فجاءه ذِكْر الله عز وجل ، فطرد الشيطان عنه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيتُ رجلاً من أُمَّتي يلتهب ـ وفي رواية : يلهث ـ عَطَشاً ، كلَّما دنا من حوضٍ مُنِعَ وطُرِدَ ، فجاءه صيام شهرِ رمضانَ ، فَأَسْقَاهُ وأَرْوَاهُ ، ورأيتُ رجلاً من أُمَّتي ، ورأيت النَّبيِّين جُلوساً حِلَقاً حِلَقاً ، كلما دنا إلى حَلْقَةٍ طُـرِدَ ، فجاءه غُسْلُهُ من الجنابة ، فأخذ بيده ، فأقعده إلى جنبي ، ورأيتُ رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن يساره ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، وهو متحيِّر فيها ، فجاءه حجُّه وعُمرتُه ، فاستخرجاه من الظلمة ، وأدخلاه في النور ، ورأيت رجلاً من أُمَّتي يتَّقي بيده وهَجَ النار وشرره ، فجاءته صدقته ، فصارت سُتْرَةً بينه وبين النار ، وظلَّلَتْ على رأسه ، ورأيتُ رجلاً من أمتي يكلِّم المؤمنين ولا يكلِّمونه ، فجاءته صِلَتُهُ لِرَحِمِهِ فقالت : يا معشر المسلمين ، إنه كان وَصُولاً لرَحِمِهِ فكلِّمُوه ، فكلمه المؤمنون وصافَحوه وصافَحَهُم ، ورأيتُ رجلاً من أُمَّتي قد احْتَوَشَتْه الزَّبانِيَةُ ، فجاءه أمره بالمعروف ونَهْيُه عن المنكر ، فاسْتَنقَذَه من أيديهم ، وأدخله في ملائكة الرحمة ، ورأيتُ رجلاً من أمتي جاثِياً على رُكْبَتَيْه ، وبينه وبين الله عز وجل حجاب ، فجاءه حُسْنُ خُلُقِهِ ، فأخذ بيده ، فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله عز وجل ، فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي خَفَّ ميزانه ، فجاءه أفراطه[1] فَثَقَّلُوا ميزانه ، ورأيتُ رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه في الله عز وجل ، فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أهوى في النار ، فجاءته دمعتُه التي بكى من خشية الله عز وجل ، فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من

(١) جمع فرط ، والمراد به : من مات له من الأطفال .

أمتي قائماً على الصراط يُرعد كما ترعد السَّعَفَة في ريح عاصف ، فجاءه حُسْنُ ظَنِّهِ بالله عز وجل ، فسَكَّن رِعْدَتَهُ ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي يَزْحَفُ على الصراط ، ويحبو أحياناً ، ويتعلق أحياناً ، فجاءته صلاته عليَّ فأقامته على قدميه ، وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلِّقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ، ففتحت له الأبواب ، وأدخلته الجنة » . رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب « الترغيب في الخصال المنجية ، والترهيب من الخلال المردية » وبنى كتابه عليه وجعله شرحاً له ، وقال : هذا حديث حسن جداً ، رواه عن سعيد بن المسيب : عمرو بن آزر ، وعلي بن زيد بن جدعان ، وهلال أبو جبلة . وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يعظِّم شأن هذا الحديث ، وبلغني عنه أنه كان يقول : شواهد الصحة عليه . والمقصود منه قوله ﷺ : « ورأيت رجلاً من امتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله عز وجل ، فطرد الشيطان عنه » فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعري .

وقوله فيه : « وآمُرَكُم بذكر الله عز وجل ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو ، فانطلقوا في طلبه سِراعاً ، وانطلق حتى أتى حصناً حَصِيناً ، فأحرز نفسه فيه » .

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه إلا بذكر الله عز وجل ، وفي الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ بسْمِ اللهِ ، توكَّلْتُ على الله ، لا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله ، يقال له : كُفِيتَ وهُدِيتَ وَوُقِيتَ ، وتَنَحَّى عنه الشيطان ، فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدِي وكُفي ووُقي » ؟ رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال : حديث حسن .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « مَنْ قال في يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كانت

له حِرْزاً من الشيطان حتى يمسي » . وذكر سفيان عن أبي الزبير ، عن عبد الله ابن ضمرة ، عن كعب قال : إذا خرج الرجل من بيته فقال : بِسْمِ اللهِ ، قال المَلَكُ : هُديتَ ، وإذا قال : توكَّلْتُ على الله ، قال المَلَكُ : كُفيت ، وإذا قال : لاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ قال المَلَكُ : حُفِظْتَ . فيقول الشياطين بعضهم لبعض : ارجعوا ، ليس لكم عليه سَبيل ، كيف لكم بمن كُفي وهُدي وحفظ ؟ .

وقال أبو خلاد المصري : من دخل في الإسلام ، دخل في حصن ، ومن دخل المسجد ، فقد دخل في حصنين ، ومن جلس في حلقة يذكر الله عز وجل فيها ، فقد دخل في ثلاثة حصون .

وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه من حديث أبي عمران الجوني ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : إذا وضع العبد جَنْبَه على فراشه ، فقال : بسم الله ، وقرأ فاتحة الكتاب ، أَمِنَ من شرِّ الجنِّ والإنسِ ومن كل شيء » ذكره السيوطي في « الجامع الكبير » ونسبه للبزار والديلمي . قال الهيثمي في « المجمع » : وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ، ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح (محقق الوابل الصيب) .

وفي « صحيح البخاري » ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة قال : ولاَّني رسول الله ﷺ زكاةَ رمضانَ أن احتفظ بها ، فأتاني آتٍ ، فجعل يَحْثُو الطَّعام ، فأخذته ، فقال : دعني فإني لا أعود ... فذكر الحديث ، وقال : فقال في الثالثة : أعلِّمك كلمات ينفعك الله بهن ، إذا أوَيْتَ إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها ، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخلى سبيله ، فأصبح ، فأخبر النبي ﷺ بقوله ، فقال : « صَدَقَكَ ، وهو كذوب » .

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذَا أوى الإنْسانُ إلىٰ فِرَاشِه ، ابْتَدَرَهُ مَلَكٌ وشَيْطَانٌ ،

فيقول المَلَكُ : اختم بخير ، ويقول الشيطان : اختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه ـ يعني النوم ـ طرد المَلَكُ الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذي أحيا نفسي بعد موتها ولم يمتها في منامها ، الحمد لله الذي يمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه[1] ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه »[2] .

وفي « الصحيحين » : من حديث سالم بن أبي الجعد ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَمَا إِنَّ أَحَدَكُم إِذَا أَتىٰ أَهْلَهُ قالَ : بِسْمِ اللهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ ، وجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فيولد بينهما ولد [3] لاَ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدَاً » [4] .

وذكر الحافظ أبو موسى ، عن الحسن بن علي قال : أنا ضامنٌ لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يَعْصِمَهُ اللهُ تعالى مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ ظَالِم ، ومن كُلِّ

---

(١) الذي في « موارد الظمآن » و « مجمع الزوائد » بدل هذه الجملة الأخيرة من الحديث : طرد الملك ... الخ : « فإن وقع عن سريره دخل الجنة . والذي في « مستدرك الحاكم » : « فإن خرق دابة مات شهيداً ، وإن قام فصلى صلى في الفضائل » . محقق الوابل الصيب .

(٢) ورواه بمعناه ابن حبان رقم ٢٣٦٢ « موارد » ، والحاكم ٥٤٨/١ وصححه ووافقه الذهبي ورجاله ثقات ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٢٠/١٠ وقال : رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح ، غير إبراهيم بن الحجاج الشامي ، وهو ثقة . نقول : وصوابه : إبراهيم بن الحجاج السامي ، بالسين المهملة . (محقق الوابل الصيب) .

(٣) كذا في النسخ المطبوعة : فيولد بينهما ولد . وليس في « الصحيحين » بهذا اللفظ ، وقد رواه المصنف بالمعنى . وفي بعض روايات البخاري : فإن كان بينهما ولد . وفي « الصحيحين » : « فإنه إن يقدر بينهما ولد ، لم يضره الشيطان أبداً » . (محقق الوابل الصيب) .

(٤) رواه البخاري ٣٢١/١٣ في التوحيد ، باب السؤال بأسماء الله تعالى ، وفي بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ، وفي الدعوات ، باب الدعاء للمتزوج ، ومسلم رقم ١٤٣٤ في النكاح ، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع . (محقق الوابل الصيب) .

شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ، ومِنْ كلِّ سَبُعٍ ضَارٍ ، ومن كلِّ لِصٍّ عادٍ : آيةَ الكرسي ، وثلاثَ آيات من الأعراف (إنَّ رَبَّكُم اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ ...) [الأعراف : ٥٤ ـ ٥٧] ، وعشراً من الصَّافَّاتِ [١ ـ ١٠] ، وثلاثَ آياتٍ من الرَّحْمٰن (يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ...) [الرحمن : ٣٣ ـ ٣٤] ، وخاتمة سُورَةِ الحَشْرِ : (لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا [القرآن]) [الحشر : ٢١ ـ ٢٤] .

وقال محمد بن أبان : بينما رجل يصلي في المسجد ، إذا هو بشيء إلى جنبه ، فجفل منه ، فقال : ليس عليك مني بأس ، إنما جئتك في الله تعالى ، ائت عروة فسله : ما الذي يتعوذه ؟ ـ يعني من إبليس الأباليس ـ . قال : قُلْ آمنتُ باللهِ العظيم وحدَه ، وكفرتُ بالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ، واعْتَصَمْتُ بالعُرْوَةِ الوُثْقى لا انْفِصَام لها ، والله سميع عليم ، حسبيَ الله وكفى ، سمع الله لمن دَعا ، ليس وراءَ اللهِ منتهى .

وقال بشر بن منصور : عن وهيب بن الورد قال : خرج رجلٌ إلى الجبّانَةِ بعد ساعة من الليل ، قال : فَسَمِعْتُ حِسًّا ـ أو صوتاً ـ شديداً ، وجِيءَ بسريرٍ حتى وضع ، وجاء شيء حتى جلس عليه ، قال : واجتمعت إليه جنوده ، ثم صرخ فقال : من لي بعروة بن الزبير ؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله عز وجل من الأصوات ، فقال واحد : أنا أكفيكه . قال : فتوجه نحو المدينة وأنا ناظِرٌ ، ثم أوشك الرجعة ، فقال : لا سبيل إلى عُرْوَةَ ، وقال : ويلكم وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى ، فلا نخلص اليه معهن ، قال الرجل : فلما أصبحتُ ، قلت لأهلي : جَهِّزُوني ، فأتيتُ المدينة ، فسألت عنه حتى دُلِلْتُ عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : أشيئاً تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ؟ فأبى أن يخبرني ، فأخبرته بما رأيت وما سمعت ، فقال : ما أدري ، غير أني أقول إذا أصبحت : آمنت بالله العظيم ، وكفرتُ بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ ، واسْتَمْسَكْتُ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى الَّتي لا انْفِصَامَ لها ، والله سَمِيعٌ عليم . إذا أصبحتُ قلت ثلاثَ مرَّات ، وإذا أمسيْتُ قلت ثلاث مرات .

وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال : قال جبريل للنبيِّ ﷺ : إنَّ عِفريتاً من الجن يَكِيدُك ، فإذا أَويْت إلى فِرَاشِكَ فقل : أَعُوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّات التي لا يُجَاوزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ ، من شَرِّ ما ينزل من السَّماء وما يَعْرُجُ فيها ، ومن شَرِّ ما ذَرأ من الأرْضِ وما يخرجُ منها ، ومن شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ والنَّهار ، ومن شَرِّ طوارقِ الليل والنهار ، إلاّ طارِقاً يطرق بخير يا رحمن[1]

وقد ثبت في « الصحيح » أن الشيطان يهرب من الأذان .

قال سهيل بن أبي صالح : أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام ـ أو صاحب ـ لنا ، فنادى منادٍ من حائط باسمه ، فأشرف الذي معي على الحائط ، فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبي ، فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة ، فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنَّ الشَّيْطَانَ إذَا نُودِي بالصلاة ، وَلَّى وله حُصَاصٌ » .

وفي رواية : « إذا سمع النِّدَاءَ وَلَّى وله ضُراطٌ ، حتى لا يسمع التَّأْذينَ ... » الحديث [2] .

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي رجاء ، عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ : « اسْتَكْثِروا من لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ والاستغفار ،

---

(١) وإسناده منقطع ، ورواه مالك في « الموطأ » ٢/٩٥١ و ٩٥٢ في كتاب الشعر ، باب ما يؤمر به من التعوذ عن يحيى بن سعيد مرسلاً . قال الزرقاني في « شرح الموطأ » : ووصله النسائي من طريق محمد بن جعفر ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، عن ابن عباس السلمي ، عن ابن مسعود . قال الزرقاني : قال حمزة الكناني الحافظ : هذا ليس بمحفوظ ، والصواب مرسل . وقال السيوطي : وأخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات » من طريق داود ابن عبد الرحمن العطار ، عن يحيى بن سعيد ، قال : سمعت رجلاً من أهل الشام يحدث عن ابن مسعود قال : لما كان ليلة الجن أقبل عفريت في يده شعلة ... فذكره . انتهى . قال الزرقاني : وفيه نظر ، لأن ليلة الجن هي ليلة استماعهم القرآن ، وهي غير ليلة الاسراء ، فهما حديثان وإن اتحد لفظ الاستعاذة فيهما . (محقق الوابل الصيب) .

(٢) رواه البخاري ٢/٦٩ و ٧٠ في الأذان ، باب فضل التأذين ، ومسلم رقم ٣٨٩ في الصلاة ، باب فضل الآذان وهرب الشيطان عند سماعه . (محقق الوابل الصيب) .

فإنَّ الشَّيطانَ قال : قد أَهْلَكْتُهُم بالذُّنوب ، وأَهْلَكُوني بقول : لا إله إلاَّ الله والاسْتِغفَار ، فلما رأَيتُ ذلك منهم ، أَهْلَكْتُهُم بالأَهْواء حتى يَحْسَبُونَ أنهم مُهْتَدُون ، فلا يَسْتَغْفِرُون »[1] .

وذكر أيضاً عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة قال : بينا رجل مسافر ، إذْ مرَّ برَجُل نائم ، ورأى عنده شيطانين ، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه : اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه ، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال : لقد نام على آية ما لنا إليه سبيل ، فذهب إلى النائم ، فلما دنا منه رجع قال : صدقت ، فذهب ، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين ، فقال : أخبرني على أي آية نمت ؟ قال : على هذه الآية : (إن رَبَّكُم اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيام ثُمَّ اسْتَوى على العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُه حَثِيثاً والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأَمْرِهِ ، أَلاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين) [الأعراف : ٥٤] .

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم : كنت أرى في داري ...[1] فقيل : يا أبا النضر تحوَّل عن جوارنا ، قال : فاشْتَدَّ ذلكَ عليَّ ، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس ، والمحاربي ، وأبي أسامة ، فكتب إليَّ المحاربي : إن بئراً بالمدينة كان يقطع رشاؤها ، فنزل بهم ركب ، فشكَوْا ذلك إليهم ، فدعوا بدَلْوٍ من ماء ، ثم تكلموا بهذا الكلام ، فصبُّوه في البئر ، فخرجت نار من البئر ، فطفئت على رأس البئر ، قال أبو النضر : فأخذت تَوْراً من ماء ، ثم تكلَّمت فيه بهذا الكلام ، ثم تتبَّعت به زوايا الدار ، فرشَشْتُه ، فصاحوا بي : أحْرَقْتَنَا ، نحن نتحول عنك . وهو : بسم الله ، أمسينا بالله الذي ليس منه شيء ممتنع ، وبعِزَّةِ اللهِ التي لا ترام ولا تضام ، وبسلطان الله المنيع نحتجب ،

---

(١) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ونسبه لأبي يعلى . وقال الهيثمي : وفيه عثمان بن مطر ، وهو ضعيف . (محقق الوابل الصيب) .

(٢) سقط شيء من الكلام . والمفهوم بالقرينة أنه كلم من كان يراهم ، فقيل له : يا أبا النضر الخ .

وبأسمائه الحسنى كلِّها عائذ من الأبالسة ، ومن شرِّ شياطين الإنس والجن ، ومن شر كل معلن أو مسر ، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار ، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شرِّ إبليس وجنوده ، ومن شر كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها إنَّ ربي على صراط مستقيم ، أعوذ بالله : بما استعاذ به موسى ، وعيسى ، وإبراهيم الذي وفى ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شر ما يبغي . أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، (بسم الله الرحمن الرحيم : والصَّافَّاتِ صَفّاً ، فالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ، فالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ، إنَّ إلٰهَكُم لواحِدٌ ، رَبُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ومَا بَيْنَهُما وربُّ المَشَارِقِ ، إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيَا بزِينَةٍ الكَوَاكِبِ ، وحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ، لا يَسَّمَّعُونَ إلىٰ المَلإِ الأَعْلىٰ ويُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً ولَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ، إلاَّ مَنْ خَطفَ الخَطْفَةَ فأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) [الصافات : ١ ـ ١٠] .

فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد : يحرز نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى .

وأحب أن أختم هذا الموضوع بحديث لم يذكره ابن القيم ، وهذا الحديث يدل على أن ذكر الله في كلِّ أمر من الأمور يذل الشيطان ويصغر أمره ويرده خائباً خاسئاً ، روى الإمام أحمد أن تميمة سمع أحد الصحابة يحدث أنه كان رديف رسول الله ـ ﷺ ـ قال : عثر بالنبي ـ ﷺ ـ حماره ، فقلت تعس الشيطان ، فقال النبي ـ ﷺ ـ : « لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » قال ابن كثير في (البداية ١/٦٥) تفرد به أحمد واسناده جيد .

خامساً ـ لزوم جماعة المسلمين :

ومما يبعد المسلم عن الوقوع في أحابيل الشيطان أن يعيش في ديار الإسلام ،

ويختار لنفسه الفئة الصالحة التي تعينه على الحق وتحضّه عليه ، وتنهاه عن السيئات ، وتذكره بالخيرات ، فإن في الاتحاد والتجمع قوة وأي قوة ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ : (من أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح . ورجاله ثقات والحديث صحيح وله طرق ، والجماعة جماعة المسلمين ، وإمام المسلمين ولا قيمة للجماعة في الإسلام ما لم تلتزم بالحق : الكتاب والسنة ، ففي الحديث « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة ، إلا استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة ، فإنما تأكل الذئب من الغنم القاصية » اسناده حسن . رواه أبو داود والنسائي وغيرهما .

وروى أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال : « ألا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قام فينا فقال : (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنَّة وهي الجماعة) ، رواه أبو داود باسناد جيد .

سادساً ـ كشف مخططات الشيطان ومصائده[1] :

على المسلم أن يتعرف على سبله ووسائله في الاضلال ويكشف ذلك للناس ، وقد فعل ذلك القرآن ، وقام بهذه المهمة الرسول ـ ﷺ ـ خير قيام ، فالقرآن عرفنا الأسلوب الذي أغوى الشيطان بـــه آدم . والرسول ـ ﷺ ـ كان يعرف الصحابة كيف يسترق الشيطان السمع ويلقي بالكلمة التي سمع في أذن الكاهن أو الساحر ومعها مائة كذبة ، يبين ذلك لهم كي لا ينخدعوا بأمثال

(١) إذا رغبت في الوقوف على تفاصيل مخططات الشيطان ومكائده ومصائده ، وكيف ألبس على الناس دينهم في العقائد والعبادات والمعاملات ، وكيف تلاعب باليهود والنصارى والمجوس وعباد الأوثان ـ فلا غنى لك عن قراءة كتابين :
الأول : تلبيس إبليس لابن الجوزي .
والثاني : إغاثة اللهفان لابن القيم .

هؤلاء ، وبين لهم كيف يوسوس لهم ويشغلهم في صلاتهم وعبادتهم ، وكيف يحاول الشيطان أن يوهمهم بأنَّ وضوءهم قد فسد والأمر ليس كذلك ، وكيف يفرق بين المرء وزوجه ، وكيف يوسوس للمرء فيقول له من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك .

سابعاً ـ مخالفة الشيطان :

يأتي الشيطان في صورة ناصح حريص على الإنسان كما سبق ، فعلى المرء أن يخالف ما يأمر به ، ويقول له : لو كنت ناصحاً أحداً لنصحت نفسك ، فقد أوقعت نفسك في النار ، وجلبت لها غضب الجبار ، فكيف ينصح غيره من لا ينصح نفسه ، يقول الحارث بن قيس: (إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي فقال إنك ترائي فزدها طولاً) (تلبيس إبليس /٣٨) وهذا فقه منه رحمه الله . وإذا علمنا أن أمرا ما يحبه الشيطان ويتصف به فعلينا أن نخالفه ، فمثلاً الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله لذا وجبت علينا مخالفته ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ : (ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطي بشماله ، ويأخذ بشماله) رواه ابن ماجة باسناد صحيح (صحيح الجامع ٨١/٥) .

والشيطان يشاركنا في الشرب إذا شربنا ونحن وقوف ولذا أرشدنا الرسول ـ ﷺ ـ إلى الشرب ونحن جلوس .

ورغبنا الرسول ـ ﷺ ـ في القيلولة معللاً ذلك بأن الشياطين لا تقيل (قيلوا فإن الشياطين لا تقيل) رواه أبو نعيم في الطب بإسناد حسن (صحيح الجامع ١٤٧/٤) .

وحذرنا القرآن من الإسراف وقد عدّ المبذرين إخوان الشياطين ، وما ذلك إلا لأنَّ الشياطين تحبُّ إضاعة المال وإنفاقه في غير وجهه .

ومن الإسراف الإكثار من الأثاث والفراش الذي لا لزوم له ، يقول

ـ ﷺ ـ : « فراش للرجل ، وفراش لامرأته ، وفراش للضيف ، والرابع للشيطان » رواه أبو داود والنسائي وأحمد بإسناد صحيح (صحيح الجامع ٨/٤) .

ومن هذا المنطلق أمرنا الرسول ـ ﷺ ـ بأن نميط الأذى عن اللقمة التي تسقط من أحدنا ، ولا نتركها للشيطان ، يقول ـ ﷺ ـ : « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه ، فإذا سقطت اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ، ثمَّ ليأكلها ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعه ، فإنَّه لا يدري في أي طعامه البركة » رواه مسلم في صحيحه (صحيح الجامع ٧٥/٢) .

مراكب الشياطين وبيوت الشياطين :

هذه المراكب الجمال والخيل والحمير في القديم ، والسيارات وأمثالها في الحديث جعلت لمنفعة بني الإنسان ، فإذا كان صاحبها غير شاغل لها كلها ومرَّ على قوم يحتاجون إلى الانتقال إلى المكان المنطلق إليه صاحب المراكب فعليه أن يسمح لهم باستخدامها وإلا كانت مراكب للشياطين ، ففي الحديث « تكون إبل للشياطين . وبيوت للشياطين ، فأمّا إبل الشياطين ، فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بجنيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله ، وأمّا بيوت الشياطين فلم أرها » رواه أبو داود بإسناد صحيح (راجع الأحاديث الصحيحة ١٤٨/١) .

ولعلَّ بيوت الشياطين المعنية في الحديث هي هذه السيارات التي يمرّ أصحابها بأولى الحاجة فلا يركبونهم .

وهذه الخيول والدواب التي يقامر عليها ويراهن عليها تعدّ من مراكب الشياطين يقول الرسول ـ ﷺ ـ : « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للإنسان ، فأما فرس الرحمن ؛ فالذي يربط في سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله في ميزانه ، وأمّا فرس الشيطان فالذي يقامر أو

يراهن عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها ، فهي ستر من الفقر » رواه أحمد بإسناد صحيح . (صحيح الجامع ١٣٧/٣) .

العجلة من الشيطان :

من الصفات التي يحبها الشيطان العجلة لما توقع الإنسان به من أخطاء ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ « التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان » رواه البيهقي في شعب الإيمان باسناد حسن (صحيح الجامع ٥٧/٣) فعلينا أن نخالف الشيطان في ذلك ونتبع ما يرضي الرحمن ، ولذلك قال الرسول ـ ﷺ ـ لأحد اصحابه « إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » .

التثاؤب :

ومما يحبه الشيطان من الإنسان التثاؤب ولذا أمرنا الرسول ـ ﷺ ـ بكظمه ما استطعنا ، يقول ـ ﷺ ـ (التثاؤب من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا قال : ها ، ضحك منه الشيطان) متفق عليه . وذلك لأن التثاؤب علامة الكسل ، والشيطان يعجبه ويفرحه من الإنسان كسله وفتوره ؛ إذ بذلك يقل عمله وبذله الذي يرفعه عند ربه .

ثامناً ـ التوبة والاستغفار :

ومما يواجه به العبد كيد الشيطان أن يسارع بالتوبة والأوبة إلى الله إذا أغواه الشيطان ، وهذا دأب عباد الله الصالحين قال تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) (سورة الاعراف/ ٢٠١) .

وقد فسر الطائف بالهمّ بالذنب أو إصابة الذنب ، وقوله : (تذكروا) أي عقاب الله وجزيل ثوابه ، ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب . (فإذا هم مبصرون) قد استقاموا وصحوا

مما كانوا فيه . وهذا يدل على أن الشيطان يكاد يجعل الإنسان في عماية لا يرى الحق ولا يبصره بما يلقيه عليه من غشاوة وما يغشى به القلب من الشبهات والشكوك .

وأخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ أن الشيطان قال لرب العزة « وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الربُّ : وعزتي وجلالي لا أزال اغفر لهم ما استغفروني » رواه احمد في مسنده والحاكم في مستدركه (صحيح الجامع ٢/٧٢) .

هذه حال عباد الله الرجوع من قريب والتوبة والإنابة إلى الله ولهم في ذلك أسوة في أبيهم آدم ، فإنه لما أكل من الشجرة تلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، توجه آدم وزوجه إلى الله قائلين: (ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) (سورة الأعراف /٢٣) .

أمّا أولياء الشيطان فقد قال الله فيهم : (واخوانهم يمدونهم في الغيّ ثم لا يقصرون) (سورة الأعراف /٢٠٢) .

والمراد بإخوانهم هنا : اخوان الشياطين من الإنس كقوله : (إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين) (سورة الإسراء /٢٧) وهم أتباعهم والمستمعون لهم ، القابلون لأوامرهم ، يمدونهم في الغيّ : أي بالتزيين والتحسين للذنوب والمعاصي ، بلا كلل ولا ملل . كقوله : (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) (سورة مريم /٨٣) .

تاسعاً ـ أزل اللبس والغموض الذي يدخل الشيطان منه إلى النفوس :

لا تقف مواقف الشبهة ، وإذا حدث ذلك فوضح للناس حالك حتى لا تدع للشيطان فرصة الوسوسة في صدور المسلمين ، ولك أسوة في رسول الله ـ ﷺ ـ في هذا ، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن صفية بنت حيي زوج النبي ـ ﷺ ـ قالت: « كان رسول الله ـ ﷺ ـ معتكفاً فأتيته

أزوره ليلاً فحدثته ، ثم قمت لأنقلب ، فقام معي ليَقْلبني - (ليردني إلى منزلي) وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد - فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلمّا رأيا رسول الله - ﷺ - أسرعا ، فقال رسول الله - ﷺ - : « على رسلكما إنها صفية بنت حيي » ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ! ! قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً أو قال شيئاً » .

قال الخطابي : « في هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الإنسان من كل أمر من المكروه مما تجري به الظنون ، ويخطر بالقلوب ، وأن يطلب السلامة من الناس باظهار البراءة من الريب .

ويحكى في هذا عن الشافعي - رضي الله عنه - أنه قال : « خاف النبي - ﷺ - أن يقع في قلوبهما شيء من أمره فيكفرا ، وإنما قاله - ﷺ - شفقة منه عليهما لا على نفسه » (تلبيس ابليس /٤٦) ومما أرشدنا الله إليه القول الحسن مع الآخرين حتى لا يدخل الشيطان بيننا وبين إخواننا فيوقع العداوة والبغضاء ، قال تعالى : (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزع بينهم) (سورة الإسراء /٥٣) وهذا أمر تساهل فيه بعض الناس فتراهم يقولون الكلام الموهم والذي يحتمل وجوهاً عدة بعضها سيء ، وقد يرمي أحدهم أخاه بألفاظ يكرهها وينابيه بألقاب يمقتها فيكون ذلك مدخلاً للشيطان فيفرق بينهم ويحل العداء محل الوفاق والألفة .

علاج الصرع

تحدثنا في ما مضى أن الشيطان قد يصيب الإنسان وهو ما نسميه الصرع أو مس الجن ، وهنا سنحاول أن نبين أسباب الصرع وعلاجه :

أسباب الصرع :

بين ابن تيمية (المجموع ٣٩/١٩) « أن صرع الجن للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق كما يتفق للإنس مع الإنس .... ، وقد يكون - وهو

الأكثر ـ عن بغض ومجازاة ، مثل أن يؤذيهم بعض الإنس ، أو يظنوا أنهم يتعمدون أذاهم إما ببول على بعضهم ، وإمّا بصب ماء حار ، واما بقتل بعضهم ، وإن كان الإنس لا يعرف ذلك ، وفي الجن جهل وظلم فيعاقبونه بأكثر مما يستحقه ، وقد يكون عن عبث منهم وشرّ بمثل سفهاء الإنس » .

واجبنا تجاه هؤلاء :

ذكرنا أن الجن عباد مأمورون متعبدون بالشريعة ، فإذا استطاع المسلم أن يصل إلى مخاطبتهم ، كما يحدث مع الجني الذي يصرع الإنسان وجب القيام بذلك .

فإذا كان صرع الجني للإنس من الباب الأول (عن شهوة وهوى) فهو من الفواحش التي حرمها الله تعالى على الإنس والجن ، ولو كانت برضا الطرف الآخر ، فكيف مع كراهته ، فإنّه فاحشة وظلم . فيخاطب الجن بذلك ويعرفون أن هذا فاحشة محرمة ، أو فاحشة وعدوان لتقوم الحجة عليهم بذلك ، ويعلموا أنه يحكم فيهم بحكم الله ورسوله الذي أرسله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن .

وما كان من الثاني (إيذاء بعض الإنس لهم) ، فإن كان الإنس لم يعلم فيخاطبون بأن هذا لم يعلم ، ومن لم يتعمد الأذى لا يستحق العقوبة ، وإن كان قد فعل ذلك في داره وملكه عرفوا بأن الدار ملكه فله أن يتصرف فيها بما يجوز ، وأنتم ليس لكم أن تمكثوا في ملك الإنس بغير إذنهم ، بل لكم ما ليس من مساكن الإنس كالخراب والفلوات ...

ويقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤٢/١٩) : « والمقصود أن الجن إذا اعتدوا على الإنس أخبروا بحكم الله ورسوله ، وأقيمت عليهم الحجة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، كما يفعل بالإنس ؛ لأن الله يقول : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، (سورة الاسراء / ١٥) وقال :

(يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا) ؟ (سورة الانعام /١٣٠) .

النهي عن قتل حيات البيوت :

يقول ابن تيمية : « ولهذا نهى النبي ـ ﷺ ـ عن قتل حيات البيوت حتى تؤذن ثلاثاً وقد سبق ذكر النصوص المبينة لذلك ، وقد ساق ابن تيمية تلك النصوص ، ثمَّ بين السبب الذي من أجله نهى عن قتل جنان البيوت فقال : (وذلك أن قتل الجن بغير حق لا يجوز ، كما لا يجوز قتل الإنس بلا حق ، والظلم محرم في كل حال ، فلا يحلُّ لأحد أن يظلم أحداً ولو كان كافراً ، بل قال تعالى : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) (سورة المائدة /٨) فإذا كانت حيات البيوت قد تكون جنّا فتؤذن ثلاثاً ، فإن ذهبت وإلا قتلت ، فإنها إن كانت حية قتلت ، وإن كانت جنية فقد أصرت على العدوان بظهورها للإنس في صورة حية تفزعهم بذلك ، والعادي هو الصائل الذي يجوز دفعه بما يدفع ضرره ولو كان قتلاً ، وأما قتلهم بدون سبب يبيح ذلك فلا يجوز » .

سب الجان وضربهم :

وذكر ابن تيمية أن واجب المؤمن نصرة أخيه المظلوم وهذا المصروع مظلوم ، ولكن النصرة تكون بالعدل كما أمر الله ، فإذا لم يرتدع الجني بالأمر والنهي والبيان ، فإنّه يجوز نهره وسبه وتهديده ولعنه ، كما فعل الرسول ـ ﷺ ـ مع الشيطان عندما جاء بشهاب ليرميه في وجه الرسول ـ ﷺ ـ ، فقال عليه السلام : (أعوذ بالله منك ، ألعنك بلعنة الله ـ ثلاثاً) .

وذكر أنه قد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجني عنه إلى الضرب ، فيضرب ضرباً كثيراً جدّاً ، والضرب إنما يقع على الجني ولا يحسه المصروع ، حتى يفيق المصروع ويخبر أنه لم يحس شيئاً من ذلك ، ولا يؤثر في بدنه ،

ويكون قد ضرب بعصا قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة أو أكثر أو أقل ، بحيث لو كان على الإنسي لقتله ، وإنما هو على الجني ، والجني يصيح ويصرخ ، ويحدث الحاضرين بأمور متعددة ، ويذكر ابن تيمية أنه فعل هذا وجربه مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة كثيرين .

الاستعانة على الجان بالذكر وقراءة القرآن :

وخير ما يستعان به على الجني الذي يصرع الإنسان ذكر الله وقراءة القرآن ، ومن أعظم ذلك قراءة آية الكرسي ، « فإن من قرأها لن يزال عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح » . كما صح الحديث بذلك وهو في صحيح البخاري .

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١٩/٥٥) : « ومع هذا فقد جرب المجربون الذين لا يحصون كثرة أن لها من التأثير في دفع الشياطين وابطال أحوالهم ما لا ينضبط من كثرته وقوته ، فإن لها تأثيراً عظيماً في دفع الشياطين عن نفس الإنسان وعن المصروع وعمن تعينه الشياطين ، مثل أهل الظلم والغضب وأهل الشهوة والطرب ، وأرباب سماع المكاء والتصدية ، إذا قرئت عليهم بصدق دفعت الشياطين ، وبطلت الأمور التي يخيلها الشيطان ، ويبطل ما عند اخوان الشياطين من مكاشفة شيطانية وتصرف شيطاني ، إذ كانت الشياطين يوحون إلى أوليائهم بأمور يظنها الجهال من كرامات أولياء الله المتقين ، وإنَّما هي من تلبيسات الشياطين على أوليائهم المغضوب عليهم والضالين » .

طرد الرسول ـ ﷺ ـ للجن من بدن المصروع :

فعل ذلك الرسول ـ ﷺ ـ أكثر من مرة . ففي سنن أبي داود ومسند الامام أحمد عن أم أبان بنت الوازع بن زارع بن عامر العبدي ، عن أبيها ، أن جدها الزارع انطلق إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فانطلق معه بابن له مجنون ، أو ابن أخت له ـ قال جدي : فلما قدمنا على رسول الله ـ ﷺ ـ قلت إن

معـي ابناً لي أو ابـن اخت لي ـ مجنون ، أتيتـك به تدعـو الله له ، قال : (أئتني به) ، قال : فانطلقت به إليه وهو في الركاب ، فاطلقت عنه ، وألقيت عنه ثياب السفر ، وألبسته ثوبين حسنين ، وأخذت بيده حتى انتهت به إلى النبي ـ ﷺ ـ ، فقال : « أدنه مني ، اجعل ظهره مما يليني » قال بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله ، فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض إبطيه ، ويقول : « أخرج عدو الله ، اخرج عدو الله » ، فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول . ثم أقعده رسول الله ـ ﷺ ـ بين يديه ، فدعا له بماء فمسح وجهه ودعا له ، فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله ـ ﷺ ـ يفضل عليه .

وفي المسند أيضاً عن يعلى بن مرة قال : رأيت من رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثاً ما رآها أحد قبلي ، ولا يراها أحد بعدي ، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها ، فقالت يا رسول الله : هذا الصبي أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء ، يؤخذ في اليوم لا أدري كم مرة ، قال : « ناوليني به » ، فرفعته إليه ، فجعله بينه وبين واسطة الرحل ، ثم فغر (فاه) ، فنفث فيه ثلاثاً ، وقال : « بسم الله ، أنا عبد الله ، اخسأ عدو الله » ، ثمَّ ناولها إياه ، فقال : « القينا في الرجعة في هذا المكان ، فأخبرينا ما فعل » ، قال : فذهبنا ورجعنا فوجدناها في ذلك المكان معها ثلاث شياه ، فقال : « ما فعل صبيك ؟ » فقالت : والذي بعثك بالحق ما حسسنا منه شيئاً حتى الساعة ، فاجترر هذه الغنم ، قال « انزل خذ منها واحدة ورد البقية » .

فقد أخرج الرسول ـ ﷺ ـ الجني بالأمر والنهر واللعن ، ولكن هذه لا تكفي وحدها ، فإنَّ لقوة الإيمان وثبات اليقين وحسن الصلة بالله أثر كبير في هذا ، يدلك على ذلك الواقعة التالية :

الامام أحمد يأمر الجني بالخروج فيستجيب :

روي أنَّ الامام أحمد كان جالساً في مسجده ، إذ جاءه صاحب له من

قبل الخليفة المتوكل ، فقال :

إن في بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلني إليك ، لتدعو الله لها بالعافية :

فأعطاه الامام أحمد نعلين من الخشب ، وقال :

اذهب إلى دار أمير المؤمنين ، واجلس عند رأس الجارية ، وقل للجني : قال لك أحمد : أيما أحبُّ إليك : تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟

فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية ، وجلس عند رأسها ، وقال كما قال له الإمام أحمد .

فقال المارد على لسان الجارية :

السمع والطاعة لأحمد ، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه ، إنّه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء .

ثمَّ خرج من الجارية ، فهدأت ، ورزقت أولاداً .

فلما مات الإمام ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير صاحباً من أصحاب أحمد ، فحضر ، ومعه ذلك النعل ، وقال للمارد : اخرج وإلا ضربتك بهذه النعل .

فقال المارد : لا أطيعك ولا أخرج ، أما أحمد بن حنبل ، فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته .

ما ينبغي أن يكون عليه المعالج :

وينبغي للمعالج أن يكون قوي الإيمان بالله معتمداً عليه ، واثقاً بتأثير الذكر وقراءة القرآن ، وكلما قوي ايمانه وتوكله قوي تأثيره ، فربما كان أقوى من الجني فأخرجه ، وربما كان الجني أقوى فلا يخرج ، وربما كان

المخرج للجني ضعيفاً فتتقصد الجن ايذاءه ، فعليه بكثرة الدعاء والاستعانة عليهم بالله ، وقراءة القرآن خاصة آية الكرسي .

الرقى والتعاويذ :

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: (مجموع الفتاوى ٢٧٧/٢٤) « وأما معالجة المصروع بالرقى ، والتعويذات فهذا على وجهين :

فإن كانت الرقى والتعاويذ مما يعرف معناها ، ومما يجوز في دين الإسلام أن يتكلم به الرجل ، داعياً الله ، ذاكراً له ، ومخاطباً لخلقه ، ونحو ذلك ، فإنه يجوز أن يرقى بها المصروع ، ويعوذ ، فإنّه قد ثبت في الصحيح عن النبي - ﷺ - : « أنّه أذن في الرقى ما لم تكن شركاً » وقال : «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » .

وإن كان في ذلك كلمات محرمة ، مثل أن يكون فيها شرك ، أو كانت مجهولة المعنى ، يحتمل أن يكون فيها كفر ، فليس لأحد أن يرقى بها ولا يعزم ، ولا يقسم ، وإن كان الجني قد ينصرف عن المصروع بها ، فإنما حرمه الله ورسوله ضرره أكثر من نفعه ..

وذكر في موضع آخر (مجموع الفتاوى ٤٦/١٩) أن أرباب العزائم الشركية كثيراً ما يعجزون عن دفع الجني ، وكثيراً ما تسخر منهم الجن إذا طلبوا منهم قتل الجني الصارع للإنس أو حبسه ، فيخيلوا إليهم أنهم قتلوه أو حبسوه ويكون ذلك تخييلاً وكذباً .

استرضاء الجن :

وبعض الناس يحاولون استرضاء الجني الذي يصرع الإنسان بالذبح له ، وهذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وروى أنه نهى عن ذبائح الجن .

وقد يزعم بعض الناس أن هذا من باب التداوي بالحرام ، وهذا خطأ

كبير ، فالصواب أن الله لم يجعل الشفاء في شيء من المحرمات ، وعلى القول بجواز التداوي بالمحرمات كالميتة والخمر ، فلا يجوز أن يستدل بذلك على الذبح للجني ؛ لأن التداوي بالمحرمات فيه نزاع لبعض العلماء ، أمّا التداوي بالشرك والكفر فلا خلاف بين العلماء في تحريمه ، ولا يجوز التداوي به باتفاق .

حقيقة الصِرَاع

في ختام هذا الفصل احب أن اثبت فصلاً هامّاً من كلام ابن القيم صوّر فيه ـ رحمه الله ـ حقيقة الصراع وطبيعته ، يقول ابن القيم ما ملخصه (الوابل الصيب /٢١) : « اختار الله الإنسان من بين خلقه فكرمه واصطفاه وجعله محلاً للإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والرجاء ، وابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه » .

ثم يقول ابن القيم ما نصه : (فهو أي لشيطان) يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه ، فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد : ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح في قضاء وطرهم ، والجوارح آلة منقادة ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة ، وشأن الجوارح ، فلا تزال الجوارح في طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا . هذا مقتضى حال العبد ، فاقتضت رحمة ربِّه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمدّه بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه ، فأرسل إليه رسوله ، وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر ، أمره الملك بأمر ربِّه ، وبين له ما في طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلم به مرة ، وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله عز وجل ، والمحفوظ من حفظه الله تعالى . وجعل له مقابل نفسه الأمّارة نفساً مطمئنة ، إذا أمرته النفس الأمّارة بالسوء ، نهته عنه النفس المطمئنة ،

وإذا نهته الأمّارة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة . فهو يطيع هذه مرة ، وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منهما ، وربما انقهرت احداهما بالكلية قهراً لا تقوم معه أبداً .

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نوراً وبصيرة ، وعقلاً يرده عن الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر ، فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية ، وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل .

فهو يطيع الناصح مرة ، فيبين له رشده ونصحه ، ويمشي خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، وتسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين أتيت ، والعجب أنه يعلم من أين أتى ، ويعرف الطريق التي قطعت عليه ، وأخذ فيها ، ويأبى إلا سلوكها ، لأنَّ دليله تمكن منه ، وتحكم فيه ، وقوي عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له ، وزجره إذا دعاه ، ومحاربته إذا أراد أخذه ، لم يتمكن منه ، ولكن هو مكنه من نفسه ، وهو أعطاه يده ، فهو بمنزلة الرجل يضع يده في يد عدوه ، فيباشره ثمَّ يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة ، ثم يطلب الخلاص ، فيعجز عنه ، فلما أن بلى العبد بما بلى به ، أعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأي حصن شئت منها ، ورابط إلى الموت ، فالأمر قريب ، ومدة المرابطة يسيرة جداً ، فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله ، فنقلوك إلى داره ، واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدوك ، وأطلقت في دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك في أصعب الحبوس وأنت تراه .

فالسجن الذي كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه ، وأيس من الروح والفرج ، وأنت فيما اشتهت نفسك ، وقرَّت عينك ،

جزاءً على صبرك في تلك المدة اليسيرة ، ولزومك الثغر للرباط ، وما كانت الا ساعة ثمَّ انقضت ، وكأنَّ الشدة لم تكن . فإن ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه ، فليتدبر قوله عز وجل : (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) (سورة الأحقاف /٣٥) وقوله عز وجل : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) (سورة النازعات /٤٦) وقوله عز وجل : (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين قال : إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون) (سورة المؤمنون /١١٢ ـ ١١٤) وقوله تعالى : (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرقاً ، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون ، إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً) (سورة طه / ١٠٢ ـ ١٠٤) وخطب النبي ـ ﷺ ـ أصحابه يوماً ، فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال ، وذلك عند الغروب قال : (إنَّه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه (رواه أحمد في المسند ، والترمذي في سننه ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح) فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الحديث ، وليعلم أي شيء حصل له من هذا الوقت الذي قد بقي من الدنيا بأسرها ، ليعلم أنه في غرور وأضغاث أحلام ، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوي شيئاً ، ولو طلب اللهَ تعالى والدارَ الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئاً موفوراً وأكمل منه ، كما في بعض الآثار :

ابن آدم ، بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعاً ، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعاً .

وقال بعض السلف : ابن آدم ، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة ، وكنت من نصيب الدنيا على خطر ، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاماً .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول في خطبته : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله عز وجل فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، فخاب وشقي عبد أخرجه الله عز وجل من رحمته التي وسعت كل شيء ، وجنته التي عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله تعالى واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباقٍ ، وشقاوة بسعادة ، ألا ترون أنكم في أصلاب الهالكين ، وسيخلفه بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم تشيِّعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسَّد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟ .

والمقصود أن الله عز وجل قد أمد العبد في هذه المدة اليسيرة بالجنود ، والعدد ، والامداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يَفْتَكُّ نفسه إذا أسر . وقد روى الإمام أحمد رضي الله عنه ، والترمذي ، من حديث الحارث الأشعري ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أمَرَ يحيى بن زكريا ﷺ بخمسِ كلماتٍ : أن يعمل بها ، ويأمرَ بني إسرائيلَ أن يعمَلُوا بها ، وأنه كادَ أن يُبطيء بها ، فقال له عيسى عليه السلام : إنَّ الله تعالى أمرك بخمسِ كلماتٍ لتعملَ بها ، وتأمر بني إسرائيلَ أن يعمَلُوا بها ، فإما أن تأمرهم ، وإما أن آمُرَهُم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي وأعذب ، فجمع يحيى الناس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد ، وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله تبارك وتعالى أمرني بخمس كلمات أن أعْمَلَهُن ، وآمُركُم أن تعمَلُوا بهن .

وخامس هذه الخمسة التي أمرهم بها الذكر (وآمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى) قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

ومما أمرهم به في الحديث الصلاة : «وآمركم بالصلاة ، فاذا صليتم ، فلا تلتفتوا فان الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت» الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان . أحدهما : التفات القلب عن الله عز وجل إلى غير الله تعالى . والثاني : التفات البصر . وكلاهما منهي عنه . ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته ، فاذا التفت بقلبه أو بصره ، أعرض الله تعالى عنه . وقد سئل رسول الله ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال : «اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ ٱلْعَبْدِ»[1] وفي أثر : يقول الله تعالى : «إلى خير مني ، إلى خير مني» ؟ ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه ، مثل رجل قد استدعاه السلطان ، فأوقفه بين يديه ، وأقبل يناديه ويخاطبه ، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ، لأن قلبه ليس حاضراً معه ، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان ؟ أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه ؟ فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته ، وذلت عنقه له ، واستحى من ربه تعالى أن يقبل على غيره ، أو يلتفت عنه . وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض قال حسان ابن عطية : ان الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة ،وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل ، والآخر ساهٍ غافل . فاذا أقبل العبد على مخلوق مثله ، وبينه وبينه حجاب ، لم يكن إقبالاً ولا تقريباً ، فما الظن بالخالق عز وجل ؟

وإذا أقبل على الخالق عز وجل ، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس .

---

(١) رواه أحمد في «المسند» ٦/٧ و١٠٦ . والبخاري ٢/١٩٤ في «الأذان» باب الالتفات في الصلاة . وأبو داود رقم ٩١٠ في الصلاة باب الالتفات في الصلاة . والترمذي رقم ٥٩٠ في الصلاة باب ما جاء في الالتفات في الصلاة . والنسائي ٣/٨ في السهو باب التشديد في الالتفات في الصلاة من حديث عائشة رضي الله عنها (محقق الوابل الصيب) .

والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها ، فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد ألهته الوساوس والأفكار ، وذهبت به كل مذهب ؟ والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه ، فانه قد قام في أعظم مقام ، وأقربه وأغيظه للشيطان ، وأشده عليه ، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه ، بل لا يزال به يعده ويمنِّيه وينسيه ، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهوِّن عليه شأن الصلاة ، فيتهاون بها فيتركها . فان عجز عن ذلك منه ، وعصاه العبد ، وقام في ذلك المقام ، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه ، ويحول بينه وبين قلبه ، فيذكِّره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها ، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة ، وأيس منها ، فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها ، ويأخذه عن الله عز وجل ، فيقوم فيها بلا قلب ، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه عز وجل الحاضر بقلبه في صلاته ؛ فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه ، وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة ، فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها ، وأكمل خشوعها ، ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه . فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه ، وأحس بأثقال قد وضعت عنه . فوجد نشاطاً وراحة وروحاً ، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها ، لأنها قرة عينيه ونعيم روحه ، وجنة قلبه ، ومستراحه في الدنيا ، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها ، لا منها ، فالمحبون يقولون : نصلي فنستريح بصلاتنا ، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم : « يَا بلالُ أَرِحْنَا بالصَّلاةِ » ، ولم يقل : أرحنا منها ، وقال ﷺ : « جُعِلْتُ قُرَّة عَيْني في ٱلصَّلاَةِ » فمن جعلت قرة عينه في الصلاة ، كيف تقر عينه ﷺ بدونها ، وكيف يطيق الصبر عنها ؟....

وقد روي أن العبد إذا قام يصلي قال الله عز وجل : ارفعوا الحجب ، فإذا التفت قال : أرخوها ، وقد فسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره ، فإذا التفت إلى غيره ، أرخى الحجاب بينه وبين العبد ،

فدخل الشيطان ، وعرض عليه أمور الدنيا ، وأراه إياها في صورة المرآة ، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت ، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب ، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب ، فإن فر إلى الله تعالى وأحضر قلبه فر الشيطان ، فإن التفت حضر الشيطان ، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة .

كيف يجعل المصلي قلبه حاضراً في الصلاة ؟

وإنما يقوي العبد على حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بربه عز وجل إذا قهر شهوته وهواه ، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة ، وأسره الهوى ، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه ، كيف يخلص من الوساوس والأفكار ؟ !

والقلوب ثلاثة :

قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير ، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه ، لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً ، وتحكَّم فيه بما يريد ، وتمكَّن منه غاية التمكن .

القلب الثاني : قلب قد استنار بنور الإيمان ، وأوقد فيه مصباحه ، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية ، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع ، فالحرب دول وسجال .

وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة ، فمنهم مَن أوقات غلبته لعدوه أكثر ، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر ، ومنهم من هو تارة وتارة .

القلب الثالث : قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان ، وانقشعت عنه حجب الشهوات ، وأقلعت عنه تلك الظلمات ، فلنوره في صدره إشراق ، ولذلك الاشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به ، فهو كالسماء التي حرست بالنجوم ، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق وليست السماء

بأعظم حرمة من المؤمن ، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء ، والسماء متعبَّد الملائكة ، ومستقرُّ الوحي ، وفيها أنوار الطاعات ، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان ، وفيه أنوارها ، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو ، فلا ينال منه شيئاً إلا خطفة ، وقد مثل ذلك بمثال حسن .

وهو ثلاثة بيوت :

بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره .

وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره ، وليس جواهر الملك وذخائره .

وبيت خال صفر لا شيء فيه ، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت ، فمن أيِّها يسرق ؟

فإن قلت : من البيت الخالي ، كان محالاً ، لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق ، ولهذا قيل لابن عباس رضي الله عنهما : إن اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها ، فقال : وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب ؟

وإن قلت : يسرق من بيت الملك ، كان ذلك كالمستحيل الممتنع ، فإن عليه من الحرس واليزَك[1] ما لا يستطيع اللص الدنو منه ، كيف وحارسه الملك بنفسه ، وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله ؟ فلم يبق للِّص إلا البيت الثالث ، فهو الذي يشن عليه الغارات .

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل ، ولينزله على القلوب ، فانها على منواله .

فقلب خلا من الخير كله ، وهو قلب الكافر والمنافق ، فذلك بيت الشيطان ، قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذه سكناً ومستقراً ، فأي شيء يسرق منه وفيه

(١) يزك ويسك (بالتركية) : بمعنى المنع والخطر والزجر .

خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه ؟ .

وقلب قد امتلأ من جلال الله عز وجل وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه ، فأيُّ شيطان يجترىء على هذا القلب ؟ وإن أراد سرقة شيء منه ، فماذا يسرق ، وغايته أن يظفر في الأحايين منه بخطفة ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لا بد له منها ، إذ هو بشر ، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع .

وقد ذكر عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى أنه قال : في بعض الكتب الإلهية : « لست أسكن البيوت ، ولا تَسعني ، وأيُّ شيء يَسعني والسموات حشو كرسيِّ ؟ ولكن أنا في قلب الوادع التارك لكل شيء سواي » وهذا معنى الأثر الآخر « ما وسعتني سمواتي ولا أرضي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن[1] » . وقلب فيه توحيد الله تعالى ومعرفته ومحبته والإيمان به والتصديق بوعده ، وفيه شهوات النفس وأخلاقها ودواعي الهوى والطبع .

وقلب بين هذين الداعيين . فمرة يميل بقلبه داعي الايمان والمعرفة والمحبة لله تعالى وإرادته وحده ، ومرة يميل بقلبه داعي الشيطان والهوى والطباع ، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع ، وله منه منازلات ووقائع ، ويعطي الله النصر من يشاء (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) (سورة آل عمران /١٢٦) وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه ، فيدخل إليه الشيطان ، فيجد سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به ، فإن أسلحته هي الشهوات والشبهات والخيالات والأماني الكاذبة ، وهي في القلب ، فيدخل الشيطان فيجدها

---

(١) قال السخاوي في « المقاصد الحسنة » ذكره الغزالي في « الاحياء » بلفظ : قال الله : لم يسعني ، وذكره بلفظ : ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع ، قال السخاوي : وقال العراقي : لم أر له أصلاً ، وكذا قال ابن تيمية : هو مذكور في الاسرائيليات ، وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ ، ونقل عن ابن الزركشي أن بعض أهل العلم قال : إنه حديث باطل ، وهو من وضع الملاحدة ، ونقله عنه العجلوني في « كشف الخفاء » وأقره عليه . (محقق الوابل الصيب) .

عتيدة فيأخذها ويصول بها على القلب ، فإن كان عند العبد عدة عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها ، انتصف من الشيطان ، وإلا فالدولة لعدوه عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فإذا أذن العبد لعدوه ، وفتح له باب بيته وأدخله عليه ومكنه من السلاح يقاتله به فهو الملوم .

فَنَفْسَـك لم ولا تَـلُم المطايـــا وَمُت كمـداً فليس لك اعتذارُ